

الإمام عبد الحميد الفراهي

كما يراه الأستاذ جاويد أحمد غامدي

بقلم: د. محمد غطريف شهباز الندوي

لقد أنجبت الهند رجالاً عظاماً مبدعين في الفكر والعلم والعمل على مر الأيام. وكان الإمام عبد الحميد الفراهي (١٨٦٩-١٩٣٠) رجلاً عملاقاً مبدعاً في العلم والبحث وخاصة في علوم القرآن، مما جعله مفسراً ملهماً، قد أسس مدرسة فكرية خاصة، لها منهجها الخاص الممتاز بها والذي تسمى باسمه فيما بعد بالمدرسة الفراهية في القارة الهندية مؤخراً. وكان للإمام تلامذة أبرار وجهابذة في علوم القرآن وتفسيره وكان أرشدهم الشيخ أمين أحسن الإصلاحية (١٩٠٤-١٩٩٧) صاحب تفسير "تدبر القرآن" باللغة الأردية. وقد نهج في تفسيره هذا منهج أستاذه الجليل. وبرز من تلامذة الإصلاحية الأستاذ المفكر جاويد أحمد غامدي وذاع صيته في الآفاق فعلى يديه قد برزت المدرسة الفراهية على الصعيد العالمي. وفي كتابه "مقامات" بالأردية قد القى الأستاذ جاويد أحمد غامدي الأضواء على حياة وأعمال وفكر الإمام الفراهي بأسلوبه الخاص و بإيجاز شديد فننقل للقارئ العربي هنا مقتبسات وجيزة لآرائه وانطباعاته عنه. فقال وهو يتحدث عن مدرسة شبلي النعماني الفكرية وما خلفته من آثار عميقة على قافلة الفكر الإسلامي في القارة الهندية:

"ففي هذه المدرسة الشخص الذي يصدق عليه أن يقال له إمام العصر هو حميد الدين الفراهي (هو عبد الحميد الفراهي أصلاً ولكن في الكتابات الأردنية يسمونه بحميد الدين

الفراهي عامة) وحده. فكان آية من آيات الله في هذا الأرض واستمع إلى سيد الطائفة الشيخ سليمان الندوي الذي رثاه في وفاته:

"الصلاة على ترجمان القرآن كانت نداء علت من منابر مصر والشام إلى حدود الصين للصلاة على جنازة ابن تيمية رحمه الله قبل ستة مائة ونصف عام منذ اليوم. ويجدر أن يعلو هذا النداء مرة أخرى اليوم وينتشر من الهند إلى أنحاء مصر والشام، لأن ابن تيمية العصر الحاضر قد غادر الدنيا في ١١ نوفمبر ١٩٣٠م وفقا لجمادى الأخرى ١٣٤٩ هـ. والذي لا نرجو أن يولد شخص آخر في العالم الإسلامي فائزا بمثل فضله وكماله. والذي كان معجزة العصر الحديث في الجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب، نابغة العربية، متخرج في الانجليزية، صورة الفضل والزهد والورع، تجسيم الفضل والكمال، بلبل شيراز بالفارسية، وسوق عكاظ بالعربية، شخصية فذة ولكن في عالم المعرفة ودنيا العلم وكون العرفان، مجمع الكمال المنعزل، وسلطان الأدب الفقير. الفذ في العلوم الأدبية مخزن العلوم العربية ناقد بصير في العلوم العقلية وصاحب حذاقة في العلوم الدينية مطلع على أسرار علوم القرآن، وعلامة رموز القرآن مستغنى عن ذخارف الدنيا وأهلها، لايبالي ولا يكثر بأخذ ورد أو قبول وتحسين الناس. المعتكف في زاوية العلم ومملك علمه هو.

الشخصية التي ما زالت عاكفة على فهم القرآن والتدبر فيه ودرسه وتدرسه كانت ومنصرفه من كل شئ وراغبة عن كل شغل سواه منذ ثلاثين عاما، ونأسف على أنه قلما انتقل علمه من صدره إلى عالم الواقع والكتابة. وخلف مسودات كثيرة وبالأسف ليس هناك من يقوم بتدوين وترتيب تلك المسودات وإشاعتها. والعديد من الرسائل التي صدرت له هي الأخرى في اللغة

العربية، التي لا يقدر عليها العلماء أنفسهم فضلا عن العوام. وكانت حياته رأس مال اعتمادنا وثقتنا، ووجوده كان عموداً لدار المصنفين (يشير إلى أكاديمية شبلي التي أسسها الشيخ شبلي في بلدة أعظم جراه بولاية اترابرايش اليوم) وتتأف على انعدام هذا الاعتماد والعمود، نعم قد بقي اعتماد الله سبحانه الذي لا اعتماد لغيره في الحقيقة. ومما نزداد أسفا على أن الشخصية كهذه جاءت وذهبت ولم تعرف الدنيا قدرها ومنزلتها ولم تعرف فضلها وكما لها: كما قال الشاعر الفارسي ما مفهومه:

مما يبعث على الأسف جدا أنك يا نظيري قد جئت من السماء مثل المسيح ثم ذهبت أيضا راجعاً ولم يقدر لك أحد حق قدرك.

وهذه الشخصية قد تشرفت وحدها أنها بدأت رحلتها فلم تترك لها طريقا ولذا هو وحده وصل إلى المنزل بين جميع السالكين لهذا الطريق. والاستاذ أمين أحسن كان تلميذاً رشيداً لنا بغة العصر كهذا، إن لم يبلغ منزل الاستاد فلم يتخلف عنه أيضا، فإن المقام الأعلى الذي وصل إليه حميد الدين قد قضى أمين أحسن طول عمره في شرح رموزه وكشف أسراره. فجاء تفسيره تدبر القرآن كتابا فذا في مجال العلم والتحقيق. وإذا استمعت إلى ماجرى في الخمسين سنة من لسان قلمه الرشيق لكان كما قال عرني الشاعر الفارسي ما مفهومه:

إن رحمة يتكلم في ميدان القتال وفي وقت الصلح تتوسع جبهته توسع الملوك.

والناس الذين ظل يعيش فيهم طول عمره قلما كان فيهم مؤهلون لمعرفة فضله وكما له، وكم شهدت في مجالسه أن تُحل عقيدات القرون في لمحات، وكم اعترفت أنه:

هذا الطريق يقضيه في لحظة رعد البرق ونحن - المتغفلون - ننتظر إلى الشمعات والسرّج.

ونعود إلى موضوعنا فإن الطائفة الأولى (أي الطائفة التقليدية من مدارس الفكر عند المسلمين في القارة الهندية) قد انصرف وقتها وطال عمرها وهي الآن كبناء عتيق يبلي ويتهدم بنفسه عند بناء جديد. والطائفة الثانية (أي المتجددة المنتمية إلى فكر السرسيد أحمد خان مؤسسة جامعة علي كره المسلمة وأمثاله) وإن كانت متسلطة على أماكن الشرف والسيادة ولكن التاريخ قد فرغ من قضاءه أن ذلك أيضا سوف يذهب إلى مذبلة التاريخ كمثل الضلالات الأخرى ولم يبق لها رسم إلا في صفحاته. فإمامة العهد القادم مقدره لمدرسة شبلي. (التي يمثلها الشيخ الفراهي خير تمثيل) كأن التاريخ يستعد خلف الستر لاستقبال ظهور هذه المدرسة في منصبه وقال اقبال الشاعر الحكيم:

إن العالم الجديد في خفاء الآن ولكني أنظر طلوع سحره بلا حجاب.

("مقامات" ص ٦٨ طبعة المورد الهند ستمبر ٢٠١٩)

وأضاف الأستاذ جاويد أحمد غامدي قائلاً وهو يتحدث عن استاذة الشيخ أمين أحسن الذي كان يروي عن استاذة هو الشيخ حميد الدين الفراهي:

"فكان يذكر اعتماد استاذة عليه بهذا الأسلوب، فذكر ذات مرة أن بعض الناس شكوا إلى الإمام الفراهي أن أمين أحسن يقول إن الشعر العربي ليس شعرا في الواقع فإنه لا يتميز فيه أن الشاعر يصف حبيبته أو يصف ناقته. فأجاب الفراهي: أرى أنه لم يلق شارحا يقوم بتفهم الشعر تفهيمًا مناسبًا. يقول: "إذا جئت سئلي الأستاذ عن ذلك، فأعدت عليه رأبي فقال

الأستاذ الإمام: إقرأ شعراً ما، فقرأت عليه الشعر الأول من معلقة امرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل. فقال الإمام: ترجمه فترجمته على نحو ما يترجمونه في المدارس العربية عموماً قال الإمام. لا لا، ليس كذلك. بل قل: قفوا قفوا أصدقائي أبك بكاءً على حبيبي ومنزل حبيبي فناديت لا ريب إنه صار شعراً صار شعراً الآن. " وكان يقول:

"إن الشعر العربي أصبح لي شعراً مرغوباً فيه رغبة كبيرة فيما بعد".

وإذا ما يذكر الأستاذ أمين أحسن شخصية الفراهي تلمعت نظراته لمعاناً عجيباً فيذكره في عظمة هذا الكليم لذروة سيناء العلم لساعات ولم يكن شعبان قط. ويتحدث بعض وقائعه في أسلوب ودي جاذب كأنه يذكر ملاكا.

كان يقول: "كنت أدرس السبع المعلقات فلم أفهم "لا" في مكان. ونظرت في الشروح الكثيرة حتى وفي شرح أديب الهند الشيخ فيض الحسن السهارنفوري فما اطمئنت إلى رأيه. فحضرت مع الكتاب إلى حضرة الفراهي وعرضت عليه قضيتي. وكان واقفاً خارج دار مطالعته. وقف لساعة ثم أخرج مرسماً وكتب في كتابي: لاهي نادرة هنا. كما تقولون: يا ترى لا تأتي لحظة موتي، فهذه 'لا' من مثل ذلك. فكان هذا أسلوباً خاصاً للإمام للتوصل إلى غوامض اللغة."

"وفي أخير أيام حياته قد أفتى عالم كبير من الهند بتكفير الفراهي بسبب بحث من بحوثه. وكان ذلك باعثاً على الاضطراب في كل المنطقة. وكان الطلبة وأساتذة مدرسة الإصلاح كلهم قلقون لذلك. وكان ذلك حدث كبير لي أيضاً ففي هذا العالم، عالم الحيرة والقلق تسرعت إلى

دار مطالعته بحثاً عنه ورأيته قائماً على مدارج دار مطالعته فاخبرته مسرعاً وقد كنت توقعت منه أن يظهر اضطراباً وقلقاً مثلما كنت أحسه غير أنه بعد أن استمع إليّ وتوقف لحظة في درجة، ثم قال: حسناً إن هذا الشخص الذي أنت تذكره لا يعرفني، ثم ذهب إلى سبيله وبقيت اتحير من جوابه قائماً. فإنه لا يمكن تعليق بليغ على فتوى التكفير هذا أكثر من ذلك". وكان يقول ولهان كبيراً: "فكان الفراهي هذا ومن أين لكم شخص كهذا؟" (نفس المصدر ص ٨٤)